أخبار مروان بن أبي حفصة (*)

نسبته وكنيته — هو مَرْوان بن سُليمان بن يَحيي بن أبي حَفْصة. ويكنى أبا السِّمط. واسم أبي حَفْصة يزيد.

أصله — وذُكر أنّه كان يهوديًّا فأسلم على يدى مَرْوان بن الحكم. وأهلُه يُنكرون ذلك ويذكرون أنه من سَبْي إصْطخر، وأنّ عُثمان بن عفّان رَضي الله عنه اشتراه فوَهبه لمَرْوان بن الحكم.

حديث عتق أبي حفصة وكنيته — وشهِد أبو حَفْصة الدّارَ (1) يوم قُتل عُثمان رضى الله عنه مع مَولاه مَروان بن الحكم، وقاتل قتالاً شديداً، وقَتل رجلاً من أسْلَمَ — يقال له: يَنان — وجُرح مَرْوان يومئذ؛ أصابتْه ضَربةٌ قطعَت عِلباوَيه (2) فَسقط، فذَبّ عنه أبو حَفْصة واحتمله، فجعل يَحمله مرةً على عُنقه ومرةً يجُرّه، فيتأوّه، فيقول له: اسكت واصبر؛ فإنهم إن علموا أنك حيٌّ قتلوك. فلم يزل به حتى أدخله دارَ امرأة من عَنَزة، فداواه فيها حتى برىء؛ فأعتقه مروانُ ونَزل له عن أمّ ولد كانت له منها بِنْت — يقال لها: حَفْصة — تَحضنها، فكُنِّي بأبي حَفْصة. لحفصة بنت مروان.

زواجه وأولاده — وكان مروان إذا ولى المدينة فى خلافة مُعاوية وجّه أبا حَفصة إلى اليمامة ليَجمع ما فيها من المال ويَحمله إليه؛ فمرّ أبو حفصة بقَرية من قُرى اليمامة، فوَقف على

(*) ساق أبو الفرج قبل أخبار «مروان» صفحة وبعض الصفحة عن صنعة أولاد الخلفاء، الذكور منهم والإناث.

(1) أى يوم دار عثمان، وبها قتل. (2) العلباء: عصيبة فى صفحة العنق.

باب فاُستسقى ماء، فخرجتْ إليه جارية مُعْصِر (١)، فسقته فأعجبته. فسأل عنها ليشتريَها، فقيل له: هى حُرة، وهى مولاة لبنى عامر بن حَنيفة. فتتبعتْها نفسُه ومضى إلى اليمامةَ، فلم يخرُج منها حتى تزوّجها؛ فأتت منه بيحيى، ومحمد، وعبد الله، وعبد العزيز.

في فتنة ابن الزبير

ولما وقعت فتنةُ ابن الزبير خرج أبو حفصة مع مولاه مروان إلى الشام.

هو يوم الجمل بين مروان وعلى

وذُكر أن أبا حَفصةَ شَهِد مع مروان يوم الجمل، وقاتل قتالاً شديداً. فلما ظَفِر علىٌّ رضى الله عنه، نجا مروانُ إلى مالك بن مِسْمع فدخل داره، ومعه أبوحَفصة؛ فقال لمالك: أغلق بابك. فقال له مالك: إن لم أمنعك والباب مفتوح لم أمنعك والباب مُغلق. فطَلب علىٌّ عليه السلام مروَان منه، فلم يَدْفعه إليه إلاّ برَهينة. فدَفع مالكٌ الرهينةَ إلى أبى حَفصة، ومَضى بمروان إلى علىٍّ عليه السلام؛ فكَساه كُسوةً، فكساها مروانُ أبا حَفصة. فغدا فيها أبو حفصة. وبَلغ ذلك عليًّا عليه السلام، فغَضِب وقال: كسوتُه كُسوة فوهبها عبدَه!

في مرج راهط

وشَهد أبو حَفصة مع مروان مَرْجَ راهط (٢)، وكان له بَلاء. وكان شاعراً.

من شعره يوم الدار

ومن شعره يومَ الدار:

وما قلتُ يومَ الدار للقوم صالِحُوا ... أجَلْ لا ولا اخترتُ الحياة على القتْلِ
ولكنَّنى قد قلتُ للقوم جالِدُوا ... بأسيافكم لا يُخْلَصنّ إلى الكَهل

أبو حفصة بين عكل والعجم

وذُكر أن عُكلاً تدَّعى أن أبا حَفصة منهم، يقولون: هو من كِنانة بن عَوف بن عبد مَناة بن أُدّ بن طَابخة بن اليأس بن مُضَر، وقد كانوا اُستعدَوْا عليه مروانَ بن الحَكَم، وقالوا: إنما باعتْه عَمّته لمجاعةٍ! فأَبى هو أن يُقرّ بذلك. ثم

(١) معصر: قد بلغت شبابها وأدركت.

(٢) مرج راهط: فى غوطة دمشق من ناحية الشرق. وفيه كانت الوقعة بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس — داعية ابن الزبير — فقتل مروان فيها الضحاك وخلت له الخلافة.

أُستَعدَوْا عليه عبدَ الملك بن مَروان أيضاً ، فأَبى إلاّ أنه رجلٌ من العَجَم من عَجَمِ فارس ، نَشأ فى عُكْل وهو صغير .

ادعاء غسان له

وولَدُ السموءل بن عادياء يَدّعونه . والسموءل من غسّان .

أخوه مروان

وذُكر أنه كان لأبى حَفْصة ابنٌ يقال له : مروان ، سمّاه مروانُ بن الحكم باسمه ، وليس بالشاعر ، وكان شُجاعاً ، أَمدّ به عبدُ الملك الحجّاجَ بن يُوسف وقال: بعثتُ إليك مولاى مَروان بن أبى حَفْصة ، وهو يَعْدِل ألفَ رجلٍ . فشهد معه حَرْب ابن الأشعث ، وأَبلى فيه بَلاءً حسناً .

شىء عن يحيى جد مروان

وكان يَحيى بن أبى حَفْصة ، جدّ مروان الشاعر ، جواداً مُمدَّحاً ، وله أشعار حَسنة .

يحيى يهنئ عبد الملك ويعزيه

وذُكر أنّ عبد الملك بن مَروان لما تُوفى ، ووَلِى ولدُه الوليدُ بن عبد الملك ، دَخل عليه يحيى بن أبى حَفْصة فهنأه وعزّاه وأَنشده :

إنّ المَنايا لا تُغادر واحداً يَمشى ببِزّته ولا ذا جُنَّه
لو كان خَلْقٌ للمنايا مُفْلِتاً كان الخليفةُ مُفْلِتاً مِنْهُنَّه
بَكتِ المَنابرُ يومَ مات وإنما بكتِ المنابرُ فَقْدَ فارسُهنَّه
لما علا هُنّ الوليدُ خليفةً قُلْن ابنُه ونظيرُه فسَكَنَّه
لو غيرُه قَرَع المَنابر بعده لنَكِرْنَه وطَرَحْنه عَنهُنَّه

منزلة مروان فى الشعر وبخله

وكان مَروان بن سُليمان بن يَحيى بن أبى حَفَصة شاعراً مُجيدا مخلاً من شُعراء الدولة العباسية ، وكان من أبخل الناس ، على يساره وكثرة ما أَصابه من الخلفاء ، وكان بنو العبّاس يُعطونه لكل بيت يَمدحهم به ألفَ درهم .

من بخله وجود سلم

وذُكر أنّ المهدىّ كان يُعطى مروانَ بن أبى حفصة وسَلْماً الخاسرَ عطيةً واحدة، فكان سَلم يأتى إلى باب المَهدىّ على البِرْذون قيمتُه عشرة آلاف درهم ، والسَّرجِ

واللجام المَقْذُوذين (١) ، ولباسُه الخزُّ والوَشيُ ، وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحةُ المِسك والغالية والطِّيب تفُوح منه ؛ ويجيء مروانُ بن أبى حَفْصة وعليه فَرْو كَبش وقميصُ كَرابيس (٢) ، وعمامةُ كَرابيس ، وكساء غليظ مُنتن الرائحة ، وكان لا يأكل اللَّحم بُخلاً حتى يَقْرَم (٣) ، فإذا قَرِم أرسل غُلامَه فيشترى له رأساً فيأكله. فقيل له : نَراك لا تأكل إلا الرُّءوس فى الصَّيف والشتاء! فلم تختار ذلك ؟ قال : نعم ، الرأسُ أعرِفُ سعره فلا يَستطيع الغُلام أن يَغبِنَنى فيه ، وليس بلَحم يطبُخه الغُلام فيقدر أن يأكل منه ، إنْ مسّ عيناً ، أو أخذ أُذناً أو خَدًّا وقفتُ على ذلك ، وآكُل منه ألواناً ، آكل عينَيه لوناً ، وأُذنيه لوناً ، وغَلْصمته لوناً ، ودماغه لوناً ، وأُكْفَى مؤونة طَبْخه ؛ فقد اجتمعت لى فيه مَرافق كثيرة .

ويَحكى موسى بن يحيى بن خالد بن بَرْمك قال : من نوادره فى البخل

أوصلنا إلى مروان بن أبى حَفصة فى وقت من الأوقات سبعينَ ألف درهم ، فجمع إليها مالاً حتى تمّت مائة ألف درهم ، وأَودعها يزيدَ بن مَزْيد . قال : فبينا نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مَزْيد ، وكانت فيه دُعابة ، فقال : يا أبا علىّ ، أَودَعنى مروانُ بن أبى حَفصة خمسينَ ومائة ألف درهم ، وهو يَشترى الُخبز من البقّال . فغضب يحيى ثم قال : علىَّ بمَروان . فأُتى به . فقال له : أَخبرنى أبو خالد بما أُودعتَه من المال وما تَبتاعه من البقّال ، ووالله لما يُرى من أَثر البُخل عليك أَضرُّ من الفقر لو كان بك .

وحُكى عن مروان بن أبى حفصة أنه قال :

ما فَرِحتُ بشيء قطُّ فرحى بمائة ألف دِرهم وَهبها لى أميرُ المؤمنين المهدى ، فوزنتُها فزادت درهماً ، فاشتريت به لحماً .

---

(١) المقذوذ : المزين المسوى. (٢) الكرابيس : الثياب الخشنة ؛ جمع : كرباس .
(٣) أى تشتد شهوته إليه .

وحكى جَهم بن خلف قال :

نزلنا على مروان بن أبى حَفصة باليمامة ، فأطعمنا تَمراً ، وأرسل غُلامه بفَلْس وسُكُرجَة (١) ليشترى لنا زيتاً . فلما جاء بالزيت قال : خُنْتَنى ! قال : مِن فَلس كيف أخونُك ! قال : أخذتَ الفَلس لنفسك واستوهبت الزيت .

وقيـــل :

مرَّ مروانُ بن أبى حفصة فى بعض أسفاره ، وهو يُريد معنَ بن زائدة، بامرأة من العرب ، فأضافته ، فقال : لله علىّ إنْ وَهب لى الأميرُ مائةَ ألفِ درهم أن أهَب لكِ درهماً . فأعطاه ستين ألفَ درهم . فأعطاها دَوَانِق (٢) .

وقيـــل :

اشترى مروانُ لحماً بنِصف دِرهم ، فلمّا وضعه فى القِدر ، وكاد يَنضج ، دعاه صديقٌ له ، فردَّه على القصّاب بنُقْصان دَانق ؛ فشَكَّه (٣) القصّاب وجعل يُنادى : هـذا لحمُ مَروان ! وظَن أنه يأنف لذلك . وبلغ الرشيدَ ذلك فقال : ويلك ! ما هذه الفَعلة ! فقال : أكره الإسراف .

وقيل : فرّق المهدىُّ على الشُّعراء جوائزَ ، فأعطى مروانَ بن أبى حَفصة ثلاثين ألفاً . فجاءه أبو الشَّمَقْمق فقال : أَجِزْنى من الجائزة . فقال : أنا وأنت نأخذ ولا نُعطى . قال : فاسمع بيتَيْن . قال : هات . فقال أبو الشّمقمق :

لِحْية مروانَ تَقِى عَنــبرًا … خالطَ مِسْكاً خالصاً (٤) أذْفرَا
فمـا يقيمان بها ســاعةً … حتى (٥) يعـودان جميعاً خرَا

---

(١) السكرجة : الصفحة . (٢) دوانق : جمع : دانق ، وهو سدس الدرهم .
(٣) شكه ، أى انتظمه فى شوكة : يريد : علقه . والرواية فى غير التجريد : « فشكاه » .
(٤) تقى ، أى « تقىء » بالهمز ، فسهل . والأذفر : الجيد من المسك .
(٥) فى غير التجريد : « إلا » .

فأمر له بدرهمين .

مع الهادى

وذُكر أنّ مروان بن أبى حفصة دَخل على موسى الهادى ، فأَنشده قولَه فيه :

تَشابه يوماَ بُؤسه ونَواله فما أحدٌ يَدرِى لأيّهما الفَضْلُ

فقال له الهادى : أيما أحبّ إليك : ثلاثون ألفاً مُعجّلَةً، أم مائةُ ألف تُدوَّن فى الدواوين ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنت تُحسن ما هو خيرٌ من هذا ، ولكنّك أُنسيته ؛ أفتأذن لى أن أذكّرك ؟ قال : نعم . قال : تُعجِّل لى الثلاثين ألفاً وتُدوِّن المائة الألف فى الدّواوين . فضحك وقال : بل يُعجَّلان جميعاً . فحُمل المال إليه أجمع .

احتكامه إلى يونس فى شعره وتفضيله على الأعشى

وذُكر أنّ مروان بن أبى حَفصة جاء إلى حَلْقة يُونس فسلّم، ثم قال لهم : أيكم يُونس ؟ فأومئوا له إليه . فقال له : أصلحك الله ! إنى أرى قوماً يقولون الشعر ؛ لأنْ يَكشف أحدُهم سوءته ثم يَمشى كذلك فى الطريق أحسنُ له من أن يُظهر مثلَ ذلك الشعر ! وقد قلتُ شعراً أعْرِضه عليك ، فإن كان جيِّداً أظهرتُه ، وإن كان رديئاً سترتُه . فأنشده :

طرقتْك زائرةً فحَىّ خيالَها بيضاء تَخلط بالحَياء[1] دلالَها

فقال له يونس : يا هذا ، اذهب فأَظْهر هذا الشعر ، فأنت والله فيه أشعرُ من الأعشى فى قوله :

* رحلتْ سُميَّة غُدوةً أَجمالَها *

فقال له مَروان : سررتَنى وسُؤْتنى ؛ فأما الذى سرّنى فارتضاؤك الشعرَ ، وأما الذى ساءنى فتقْديمك إياى على الأعشى ، وأنت تعرف محلَّه . فقال له : إنما قدَّمتُك عليه فى تلك القصيدة لا فى الشعر كله ؛ لأنه قال فيها :

* فأصاب حبّة قلبها وطِحالَها *

(١) فى بعض أصول الأغانى : « بالدلال جمالها » .

والطّحال لا يدخل فى شىء إلا أفسده ، وقصيدتُك سليمة من هذا وشِبْهه .

اتصاله بمعن وانتحاله شعر الباهلى

وحُكى أنّ مروان بن أبى حَفصة مرّ برجل من باهلةَ من أهل اليمامة ، وهو يُنشد قوماً كان جالساً إليهم ، شعراً مَدح به مروانَ بن مُحمد ، وأنه قُتل قبل أن يلقاه ، ويُنْشده إياه ، أوله :

مَروانُ يا بن محمدٍ أنت الذى زِيدتْ به شَرَفاً بنو مروانِ

فأعجبته القصيدةُ ، فأمهل الباهلىَّ حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه فى منزله فقال له : إنّى قد سمعتُ قصيدتَك وأعجبتنى ، ومروانُ قد مَضى ومضى أهلُه ، وفاتك ماقدّرتَ عنده ؛ أفتبيعُنى القصيدة حتى أنْتحلها ، فإنه خيرٌ لك من أن تبقى عليك وأنت فقير ! فقال : بكم ؟ فقال : بثلثمائة درهم . قال : قد بِعْتُها . فأعطاه الدراهمَ ، وحلّفه بالطلاق ثلاثاً وبالأيمان المُحرِجة ألّا يَنْتحلها أبداً ولا ينسُبها إلى نفسه ولا يُنْشدها . وانصرف إلى منزله ، فغيّر منها أبياتاً وزاد فيها ، وجعلها فى مَعن بن الشّيبانى ، وقال :

مَعنْ بن زائدةَ الذى زِيدت به شَرفاً إلى شَرف بنو شَيبانِ

ووفد بها إلى مَعن بن زائدة ، فملأ يديه ، وأقام عنده مدةً حتى أثرى واتسعت حاله . فكان مَعنٌ أولَ مَن رفع ذكره ونوّه به . وله فيه مدائحُ بعد ذلك شريفة ومراثٍ حَسنة .

حديثه عن معن وسعى المنصور فى طلبه

وحَكى مروانُ بن أبى حَفصة قال :

كان أبو جَعفر المَنصور قد طَلب مَعن بن زائدة طلباً شديداً ، وجعل فيه مالاً . قال مروان : فحدّثنى معنُ بن زائدة باليمن أنه اُضطرُ لشدّة الطلب إلى أن قام فى الشّمس إلى ان لوّحت وجهَه ، وخفّف عارضيه ولِحْيته ، ولَبِس جُبة صُوف غليظة، وركب جملاً من الجمال النّقّالة ، وخَرج عليه ليَمْضى إلى البادية فيُقيم بها ؛ وكان قد

أَبلى فى حرب يَزيد بن عُمر بن هُبيرة [١] بلاءً غاظ المنصورَ وجدَّ فى طلبه . قال مَعن : فلما خرجتُ من باب حَرْب [٢] تبعنى أسودُ متقلدًا سيفاً ، حتى إذا غِبتُ عن الحرس قَبض على خِطام الجمل فأناخه ، وقَبض علىَّ . فقلت : مالك ؟ قال : أنت طَلِبةُ أمير المؤمنين . قال معن بن زائدة : فقلت : يا هذا ، اتّق الله ! وأين أنا من مَعن ! فقال : دَع هذا عَنك ، أنا والله أعرفُ به منك . فقلت له : فإن كانت القصّة كما تقول فهذا جوهرٌ حملتهُ معى يفى بأضعاف ما بذله المنصورُ لمن جاءه بى ، فخذْه ولا تَسفك دمى . فقال : هاتِه . فأخرجتهُ إليه . فنظر إليه ساعةً وقال : صدقتَ فى قيمته ، ولستُ قابلَه حتى أسألك عن شىء ، فإن صدقتَنى أطلقتُك . فقلت : قل . قال : إن الناس قد وصَفوك بالجود ، فأخبرنى : هل وهبتَ مالَك كله ؟ قلت : لا . قال : فنصفه ؟ قلت : لا . قال : فثُلثه ؟ قلت : لا . حتى بلغ العُشر . فاستحييتُ وقلت : أظنّ أنى قد فعلتُ هذا . فقال ما ذاك بعظيم ، أنا والله راجل ، ورِزقى من أبى جعفر عشرون درهما ، وهذا الجوهر قيمتهُ آلافُ دنانير ، وقد وهبتهُ لك ووهبتُك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس ، ولتعلم أنّ فى الدُّنيا مَن هو أجود منك ، فلا تُعجبك نفسُك ولْتَحقر بعد هذا كلَّ شىء تفعله ، ولا تتوقَّف عن مَكرُمة ؛ ثم رَمَى بالعِقد فى حِجْرى وخلَّى خِطام البعير وانصرف . فقلت له : يا هذا ، والله فضحْتَنى ! ولَسَفْكُ دمى أهونُ علىَّ مما فعلتَ ! خُذ ما دفعتُ إليك فإنى غَنِىٌّ عنه . فضَحك ثم قال : أردتَ أن تكذّبنى فى مَقامى هذا ، والله لا آخذه ولا آخذ لمعروفٍ ثمناً أبداً ، ومَضى . فوالله لقد طلبته بعد أن أمنتُ ، وبذلتُ لمن جاءنى به ما شاء ، فما عرفتُ له خبراً ، وكأنّ الأرض ابتلعته .

(١) من رجالات بنى أمية وفرسانهم . أبلى مع مروان بن محمد ، ثم قتله أبو جعفر سنة ١٣٢ هـ . (الطبرى فى حوادث هذه السنة) .

(٢) موضع ببغداد ، ينسب إلى حرب بن عبد الله البلخى ، أحد قواد المنصور . (ياقوت) .

قال : وكان سبب رِضا المنصور عن مَعن أنه لم يزل مُستتراً حتى كان يوم الهاشميّة(١) :

تعقيب لابن واصل

قلت : هذا يوم وثبتْ فيه جماعةٌ على المَنصور ــ ويقال لهم: الرّاوندية ، كانوا يَعتقدون أن المَنصور إلٰه خالق رازق ــ وبلغ المنصورَ ذلك عنهم فأمر بقتلهم ، فوثبوا به فى المدينة التى بناها أخوه السَّفّاح وسمّاها الهاشمية .

عود لحديث مروان عن معن

قال مروان : فلما وَثب القومُ على المَنصور وكادوا يقتُلونه ، وثب معنُ بن زائدة وهو متلثِّم فانتضَى سيفَه وقاتل ، فأبلى بلاءً حسناً ، وذَبّ القومَ عنه حتى نَجا ، وهم يُحاربونه بعدُ . ثم جاء والمنصورُ راكب على بَغلة ولجامُها بيد الرَّبيع ، فقال له : تَنحَّ فإنى أحقُّ باللجام منك فى هذا الوقت وأعظمُ فيه غناءً . فقال له المَنصور : صَدَق ! فادفعه إليه . فأخذه ، فلم يزل يُقاتل حتى انكشفت تلك الحالُ . فقال له المنصور : من أنت ؟ لله أبوك ! قال : أنا طَلِبتك يا أميرَ المُؤمنين : مَعن بن زائدة . فقال : قد أمَّنك الله على نَفسك ومالك ، ومِثلك يُصطنع . ثم أخذه معه ، فخَلع عليه وحَباه وزيّنه(٢) . ثم دعا به ، فقال : إنّى قد أهّلتُك لأمرٍ فكيف تكون فيه ؟ قال : كما يُحبّ أميرُ المؤمنين . قال : قد ولّيتك اليمَن ، فابسُط فيهم السيفَ حتى ينقَض حِلْف ربيعةَ واليمن . قال : أبلُغ من ذلك ما يُحب أمير المُؤمنين . فولّاه اليمنَ . وتوجّه إليها فبَسط فيهم السيفَ .

قال مروان : وقَدم معنُ بن زائدة بِعَقِب ذلك فدَخل على المنصور . فقال له بعد كلام طويل : قد بلغ أميرَ المؤمنين عنك شىء ، لولا مكانُك عنده ورأيه فيك لغَضِب عليك . قال : وما ذلك يا أميرَ المُؤمنين ، فوالله ما تعرّضتُ لك منك . قال : إعطاؤك مروانَ بن أبى حَفْصة ألفَ دينار ، لقوله فيك :

(١) الهاشمية : مدينة بناها السفاح بالكوفة ، وزاد فيها المنصور ؛ وسيعرض ابن واصل لهذا اليوم . (ياقوت) . (٢) فى التجريد : « ورتبه » .

مَعْنُ بن زائدةَ الذى زِيدتْ به شرفاً على شَرفٍ بنو شَيبانِ
إنْ عُدّ أيامُ الفَخار(١) فإنما يوماهُ يومُ ندًى ويومُ طِعانِ

فقال: واللهِ يا أميرَ المُؤمنين ما أعطيته ما بَلغك لهذا الشعر، وإنما أعطيتُه لقوله:

ما زِلتَ يومَ الهاشميةِ مُعلَماً بالسيف دون خليفة الرحْمنِ
فمنعتَ حَوْزَته وكنتَ وِقاءه من وَقْع كُلِّ مُهنَّدٍ وسِنانِ

فاَستحيا المنصور وقال: إنما أعطيتَه ما أعطيته لهذا القول؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، وواللهِ لولا مَخافة الشَّناعة(٢) عندك لأمكنتُه من مفاتيح بيت المال، وأبحتُه إيّاها. فقال المنصور: للهِ دَرُّكَ من أعرابىّ! ما أهونَ عليك ما يَعِزُّ على الرجال وأهل الحزم!

هو والمهدى وقد وفد عليه يمدحه

وحَكى الفضلُ بن الرَّبيع قال:

رأيتُ مروانَ بن أبى حَفْصة، وقد دَخل على المهدىّ بعد وفاة مَعن بن زائدة فى جُملة الشُّعراء، فيهم سَلْم الخاسر وغيرُه، فأنشده مديحاً له فيه؛ فقال له: من أنت؟ فقال: شاعرُكَ يا أميرَ المُؤمنين مروانُ بن أبى حَفصة. فقال له المَهدىّ: ألست القائل:

أَقَمْنا بالمدينة(٣) بعد مَعْنٍ مُقاماً لا نُريد به زَوالَا
وقُلنا أين نَرحل بعد مَعْنٍ وقد ذَهب النَّوالُ فلا نَوالا

قد ذهب النَّوال فيما زعمتَ، فلِمَ جئتَ تطلُب أموالَنا؟ لا شىءَ لك عندنا! جُرُّوا برجله. فجرُّوا بِرجْله، حتى أُخرج. فلما كان العامُ المُقبل تلطَّف حتى دَخل

(١) فى غير التجريد: «الفعال».
(٢) فى بعض أصول الأغانى: «النقمة». وفى بعض آخر: «الشنعة».
(٣) فى غير التجريد: «باليمامة».

مع الشُّعراء — وإنما كانت الشُّعراء تدخُل على الخُلفاء فى كل عام مرة — فمَثَل بين يديه وأَنشده بعد رابع ، أو بعد خامس ، من الشعراء :

طرقتْك زائرةً فحيِّ خيالَهَا بيضاءُ تَخلط بالحَيَاء دَلالَهَا
قادتْ فؤادَك فاستقاد ومثلُها قاد القلوبَ إلى الصِّبا فأمالَها

فأنصت لها المهدىُّ ، حتى بلغ مروان إلى قوله :

هل تَطمِسون من السماء نُجومَها بأكفِّكم أو تَسْتُرون هِلالَهَا
أو تَجْحدون مقالةً من ربِّكم جبريلُ بَلَّغها النبيَّ فقالَهَا
شهدتْ من الأنفال آخرُ[1] آية بتُراثهم فأردتُمُ إبْطالَهَا

هو والرشيد وقد وفد عليه يمدحه

قال : فرأيتُ المهدىَّ وقد زَحف من صَدر مُصلَّاه حتى صار على البِساط ، إعجاباً بما سَمع ، ثم قال : كم هى ؟ قال : مائةُ بيت . فأمر له بمائة ألفِ درهم . فكانت أوّلَ مائة ألف دِرهم أُعطيها شاعرٌ فى أيام بنى العبّاس .

قال : ومَضت الأيامُ وَولى هارون الرشيد الخلافةَ ، فدَخل إليه مروان ، فرأيتُه واقفاً مع الشُّعراء ، ثم أَنشده قصيدةً امتدحه بها . فقال : من أنت ؟ فقال : شاعرُك وعبدُك يا أميرَ المؤمنين مَروانُ بن أبى حفصة . فقال له : ألستَ القائلَ فى معن بن زائدة ؟ وأنشده البيتين اللذين أنشده إياهما المَهدى ، ثم قال : خُذوا بيده فأخرجوه ، لا شىء لك عندنا ! فلما كان بعد ذلك بيومين تلطَّف حتى دَخل ، فأنشده قصيدتَه التى يقول فيها :

لعمرك ما أَنسى غداةَ المُحصَّب إشارةَ سَلْمى بالبَنان المُخضَّبِ
وقد صَدر الحُجَّاج إلّا أقلَّهم مصادر شَتَّى مَوكباً بعد مَوْكِبِ

(١) يشير إلى قوله تعالى : (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم. وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله . إن الله بكل شىء عليم) .

فأعجبته . فقال : كم قصيدتُك ؟ فقال : سِتُّون ـ أو سبعون ـ بيتاً . فأمر له بعَدد أبياتها أُلوفاً . فكان ذلك رَسْمَ مروان عندهم حتى مات .

صلة المهدى له

وقال مروانُ بن أبى حفصة :

دخلتُ على المهدىّ فى قَصره بالرُّصافة ، فأنشدتُه قولى فيه :

أَمَرُّ وأَحْلَى ما بلا الناسُ طعمَه عذابُ أمير المُؤمنين ونائلُه
وإنّ طَلِيقَ الله من أنت مُطْلِقٌ وإنّ قَتِيلَ الله من أنت قاتلُه
كأنّ أميرَ المُؤمنين محمداً أبو جعفر فى كُلِّ أمرٍ يُحاوله

قال : فأُعجب بها وأمر لى بمال عظيم . وكانت تلك الصلةُ أوّلَ صلةٍ سَنِيَّة وصلتْ إلىّ فى أيّام بنى هاشم .

حديثه مع الجنى

وحَكى محمدُ بن حَفْص بن عَمْرو بن الأَيهم الحَنفىّ قال :

مرّ مروانُ بن أبى حَفصة برجلٍ من تَيم اللَّات بن ثَعلبة ، يُعْرَفُ بالجِنِّىّ . فقال له مروان : زَعموا أنّك تقول الشِّعر . فقال له : إن شئتَ عرَّفْتُك ذلك . فقال له مَروان : وما أنتَ والشِّعر ! ما أرى ذلك من طريقتك ولا تقوله ! فقال له الجِنّىّ : أجلس فأسمع . فجلس . فقال الجِنّى يهجوه :

ثَوى اللُّؤم فى عَجْلانَ يوماً وليلةً وفى دار مَروانٍ ثَوى آخر الدَّهرِ
غـدا اللؤمُ يَبغى مَطْرَحاً لرِحاله فنقَّب فى بَرِّ البلاد وفى البَحر
فلمّا أتى مروانَ خَيَّم عنده وقال رَضِينا بالمُقام إلى الحَشْر
وليست لمروانٍ على العِرْسِ غَيرةٌ ولكنّ مرواناً يَغار على القِدْر

فقال له مروان : نَشدتُك الله إلّا كَففتَ ، فإنك أشعرُ الناس . فحَلف الجِنِّى بالطلاق ثلاثاً أنه لا يكفّ حتى يَصير إليه بنَفر من رؤساء أهل اليمامة ، ثم يقول

بحَضرتهم : قاق ! فى أستى بيضة . فجاءهم مروانُ وفعل ذلك بحضرتهم — وكان فيهم جَدِّى يحيى بن الأيهم — فانصرفوا وهم يضحكون من فعله .

وفوده على الهادى مهنئاً ومعزياً

وذُكر أنه لما مات المهدىُّ وفدتِ العربُ على ابنه موسى الهادى يهنئونه بالخلافة ، ويعزُّونه عن المهدىّ . فدخل مروانُ بن أبى حفصة ، فأخذ بعضادتى الباب ، ثم قال :

لقد أصبحتْ تختال فى كُل بلدةٍ بقبر أمير المؤمنين المَقابرُ
ولو لم تُسكِّن بابنه فى[1] مقامه لما برِحت تبْكى عليه المَنابر

فخرج الناس بالبيتين .

تهنئته ابن مسعدة بإبلاله من مرضه

وذُكر أنه مرض عمرو بن مَسعدة ، فدخل عليه مروانُ بنُ أبى حفصة ، وقد أبلَّ من مرضه ، فأنشأ يقول :

وصحّ الجِسْمُ يا عمرو لك التَّمحِيصُ والأَجرُ
ولله علينا الحَمْـ ـدُ والمِنَّة والشُّكر
فقد كان شكا شوقاً إليك النَّهىُ والأَمرُ

لصريع الغوانى فى نحوه

فنحا نحوه مُسلم بن الوليد صريعُ الغوانى فقال :

قالوا أبو الفَضل محمومٌ فقلت لهم نَفسى الفِداءُ له من كُلِّ مَحْذورِ
يا ليت عِلَّته بى غير أنَّ له أجرَ العَليل وأنِّى غيرُ مأجور

شعره الذى فيه الغناء

والشعرُ الذى فيه الغناء ، وافتتح به أبو الفرج أخبارَ مروانَ بن أبى حفصة ، هو :

* هل تَطمِسون من السماء نُجومَها *

والبيت الذى بعده ، وقوله : « طرقتك زائرة » . وقد تقدّم ذكرها[2] .

(١) فى غير التجريد : «فى مكانه» . (٢) انظر (ص ١١٣٧ و ١١٤٢) من هذا الجزء .

أخبار إبراهيم بن المهدي

نسبه

هو أبو عبد الله محمد بن المنصور أبي جَعفر عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله ابن العبَّاس بن عبد المُطلب .

أمه

وأمه شَكْلة ، أَمةٌ مولَّدة . كان أبوها رجل من أصحاب المازِيار ، يقال له : شاه أفْرند . فقُتل مع المازيار ، وسُبيت شَكِلة وحُملت إلى المنصور ، فوَهبها لمُحيّاةَ أمّ ولده ، فربَّتها و بعثتْ بها إلى الطائف ، فنشأت هناك وتفصَّحت . فلما كَبرتْ رُدّت إليها ، فرآها المهديّ عندها فأعجبتْه ، فطلبها من مُحيَّاة، فأعطتْه إيّاها ، فولدت منه إبراهيم .

من صفته

وكان رجلاً عاقلاً فهِماً أديباً[1] شاعراً ، راوية للشِّعر وأيام العرب ، خطيباً فصيحاً حسنَ العارضة .

لإسحاق الموصلي فيه

وكان إسحاق الموصلي يقول :

ما وَلد العبّاسُ بن عبد المطلب ، بعد عبد الله بن العباس ، رجلاً أفضلَ من إبراهيم بن المَهدىّ . فقيل له : مع ما تَبذّل به من الغناء ؟ فقال : وهل تَمّ فضلُه إلّا بذلك .

منزلته فى الغناء

وكان إبراهيم ، مع فَضله وشرفه ، بارعاً فى صناعة الغِناء متقدِّماً فيها . وكان يقول : لولا أنّى أرفع نفسى عن هذه الصناعة لأظهرتُ فيها ما يَعلم الناس معه أنهم لم يَرَوْا قَبلى مِثلى .

---

(١) فى بعض أصول الأغانى : « دينا » .

غناؤه لسليمان بن أبى جعفر و جعفر ابن يحيى

وكان رُبما غنَّى لأخيه الرشيد المرّةَ بعد المرّة . فحُكى عنه أنه قال :

كان الرشيدُ يُحب أن يسمعنى ، فخلا بى مرّاتٍ إلى أنْ سمعنى . ثم حضرتُه مرّةً وعنده سليمانُ بن أبى جعفر المَنصور ، فقال لى : عمُّك وسيدُ ولد المَنصور بعد أبيك ، وقد أَحبّ أن يَسمعك . فلم يتركْنى حتى غَنَّيتُ بين يديه :

سَقياً لرَبْعِكِ من رَبعٍ بذى سَلَمٍ ... وللزّمان به إذ ذاك من زَمنِ
إذ أنتِ فينا لمن ينهاكِ عاصيةٌ ... و إذ أُجرّ إليكم سادراً رَسَنِى

فأمر لى بألف ألف درهم . ثم قال لى ليلةً أُخرى ، ولم يَبقَ عنده فى المجلس إلّا جعفر بن يحيى ، فقال : أنا أُحبُّ أن تشرِّفَ جعفراً بأن تُغنّيه صوتاً . فغنيته لحناً صنعتُه فى شعر الدَّارمىّ :

كأنّ صُورتها فى الوصف إذ وُصفتْ ... دينارُ عينٍ من المَضروبة(١) العُتُقِ
أو دُرّةٌ أَعْيَت الغوّاصَ فى صَدَفٍ ... أو ذَهَبٌ صاغَه الصوّاغ فى وَرِقِ

فأمر لى بألف ألف درهم .

حبسه الأمين ثم رضى عنه وأطلقه

وحَكى إبراهيم بن المهدىّ قال :

غَضِب علىّ محمدٌ الأمين فى بعض هَناته ، وسلّمنى إلى كَوْثر(٢) ، وحَبسنى فى سِرْداب وأَغلقه علىّ . فمكثتُ فيه ليلتى . فلما أصبحتُ إذا أنا بشيخٍ قد خَرج علىّ من زاويةِ السِّرداب ، فدَفع إلىّ رَبيطاً(٣) وقال : كُلْ . فأكلت . ثم أخرج لى قِنِّينة شراب ، فقال : اشرب . فشربتُ . ثم قال لى غَنّ فغنيتُ :

لى مُدةٌ لا بُدَّ أَبلغُها ... معلومةٌ فإذا انقضتْ مُتُّ
لو ساورتْنى الأُسد ضارية ... لغلبتُها ما لم يَجِ الوَقْتُ

(١) فى غير التجريد : « المصرية » . (٢) هو كوثر خادم الأمين .
(٣) الربيط : التمر اليابس .

وسمعني كَوثر . فصار إلى محمد وقال له : قد جُنّ عَمُّك ! هو جالسٌ يُغَنِّى مكَيت وكَيت . فأَمر بإحضارى . فأُحضرت . فأخبرتُه بالقصّة . فأَمر لى بسبعمائة ألف دِرهم ، ورَضى عنِّى .

أبو أحمد بن الرشيد والمأمون ومطارحة علية له

وحَكى أبو أحمد بن الرشيد قال :

كنتُ يوماً بحضرة المأمون وهو يشرب ، فدعا بياسِرٍ فسارّه بشيء . فمَضى وعاد . فقام المأمونُ وقال لى : قُم . فدَخل دار الحُرم ودخلتُ معه ، فسمعتُ غِناءً أذهل عقلى . وفَطِن المأمونُ لما بى ، فضَحك وقال : هـذه عَمّتُك عُلَيّة تُطارح عمّك إبراهيم . والشعرُ لعُليّة بنت المهدىّ ، وكذلك الصَّنعة :

ما لِى أرى الأَبصارَ بى جافِيَهْ … لم تَلتفِتْ منِّى إلى ناحيه
لا ينظر النـاسُ إلى المُبتلَى … وإنما الناسُ مع العافيـه
صَحْبى سَلُوا ربكُم العافيـهْ … فقد دهتْنى بعدكُمُ داهيـه
وقد جفانى ظالمـاً سـيدى … فأَدمُعى مُنهـلَّة[1] جاريه

ابن بسخنر بينه وبين جاريته شارية

وحكى محمدُ بن الحارث بن بُسْخُنَّر قال :

وجَّه إلىّ إبراهيمُ بن المهـدىّ يوماً يدعونى ، وذلك فى أول خلافة المُعتصم ، فصرتُ إليه وهو جالس وحدَه، وشاريةُ جاريته خلف السِّتارة، فقال : إنِّى قلتُ شعراً وغنيتُ فيــه ، فطرحتُه على شارية فأخذتْه ، وزعمتْ أنها أحذقُ به منِّى ، وأنا أقول : إنى أحذق به منها ، وقد تراضينا بك حَـكَماً بيننا لموضعك فى هـذه الصناعة ، فاُسمعه منِّى ومنها واُحكم ، ولا تَعجل حتى تَسمعَه ثلاثَ مرّات . فقلت : نعم . فاُندفع يغنِّى :

أَضَنُّ بلَيلَى وهى غيرُ سخيةٍ … وتَبخل ليلى بالهَوى وأَجودُ

فأَحسن وأَجاد . ثم قال لها : تغنَّىْ . فغنّتْه ، فبرّزت فيه حتى كأنه كان معها

(١) فى بعض أصول الأغانى : « هامية » مكان « جارية » .

فى « أبى جاد » . ونظر إلىّ فعرف أنى قد عرفتُ فضلَها عليـــه . فقال : على رِسْلِك ! وتحدَّثنا وشرِبْنا ، ثم اُندفع فغنَّاه ثانيةً ، فأضعف فى الإحسان . ثم قال لها : تغنَّىْ . فغنَّت، فبرعت وزادت أضعافَ زيادته ، وكدتُ أشُقّ ثيـابى طرباً . فقال لى : تثبَّت ولا تَعجل . ثم غنَّاه ثالثةً ، فلم يُبْقِ غايةً فى الإحكام . ثم أمرها، فغنَّت . فكأنه إنما كان يلعب . ثم قال لى : قُل . فقضيتُ لها . فقال : أصبتَ . فكم تُساوى عندك الآن ؟ فحملنى الحسدُ له عليها ، والنفاسةُ بمثلها أنْ قلت : تُساوى مائة ألف دِرهم . فقال : أوَ ماتُساوى على هذا الإحسان وعلى هذا التَّفضيل إلّا مائة ألف ! قَبَحَ الله رأيـك ! والله ما أَجِد شيئاً أبلغ فى عُقوبتك من أن أصرفَك ، فقم فاُنصرفْ إلى منزلك مَذْموماً . فقلت له : ما لقولك : « اُخرج من منزلى » جوابٌ ! وقمتُ فاُنصرفتُ ، وقد أحفظنى كلامُه وأَرمضنى[1] . فلما خطوتُ خُطواتٍ اُلتفتُّ إليــه فقلت : ياإبراهيم ، أتطرُدنى من مَنزلك ! فوالله ما تُحسن أنت ولا جاريتُك شيئاً ! وضَرب الدهرُ ضربانَه ، ثم دعانى المُعتصم بعد ذلك وهو بالوزيريّة فى قصر التّل ، فدخلتُ أنا ومُخارق وعَلُّويه ، وإذا أميرُ المؤمنين مُصطبح وبين يديه ثلاث جاماتٍ : جامُ فضّـة مملوءةٌ دنانير جُدُداً ، وجام ذهب مملوءةٌ دراهم جُدداً ، وجام قواريرَ مملوءةٌ عنبراً . فظننّا أنها لنا ، بل لم نَشُك فى ذلك . فغنَّيناه وأجهــــدنا أنفُسنا ، فلم يَطرب ولم يتحرك لشىء من غنائنا . ودخل الحاجبُ فقـال : إبراهيمُ ابن المهدىّ . فَأْذن له . فدَخل فغنّاه أصواتاً أحسنَ فيها ما شاء . ثم غنّاه بصوت من صَنعته — والشعر لإبراهيم الموصلى — وهو :

ما بالُ شَمسِ أبى الخَطّاب قد غَرَبتْ ... يا صـاحبيّ أظُنّ السـاعةَ اُقتربتْ

فاُستحسنه المُعتصم وطَرب له ، وقال : أَحسنتَ والله ! فقـال إبراهيم : يا أميرَ المُؤمنين ، فإن كنتُ قد أحسنتُ فهَب لى إحدى هذه الجامات . فقال :

---

(١) فى بعض أصول الأغانى : « وأمضنى » .

خُذ أيتها شئت . فأَخذ التى فيها الدَّنانير . فنَظر بعضنا إلى بعض . ثم غنّاه إبراهيمُ بشعر له ، وهو :

فمـــا مُزَّةٌ قهوةٌ قَرقَفٌ شَمُولٌ تَروق براوُوقها(١)

فقال : أحسنت والله يا عم ، وسَررتَ ! فقـال : يا أميرَ المؤمنين ، إن كنتُ أحسنتُ فهَبْ لى جاماً أُخرى . فقال : خُذ أيتهما شئت . فأَخذ الجام التى فيها الدَّراهم . فعندها أُنقطع رجاؤنا منها . وغنّاه بعد ساعة بشعر العبّاس بن الأَحنف :

ألا ليتَ ذا الخال تَلْقى مِن الهوى عَشِـيرَ(٢) الذى أَلْقَى فيلتئمَ الحُبُّ
وِصالـكُمُ صَــدٌّ وقُربكُمُ قِلًى وعطفـكُمُ سُخْطٌ وسِلْـمكُم حَرْب

فقام المُعتصم على رجليْـه طَرباً ، وأُرتجّ بنا المَجلس الذى كُنّا فيه . ثم جَلس المُعتصم وقال : أحسنتَ والله يا عَم ما شئت ! فقال : إن كنتُ أحسنتُ يا أمير المؤمنين فهَبْ لى الجام الثالثة . فقال : خُذها . فأَخذها . وقام أميرُ المؤمنين . فدعا إبراهيمُ بمِنْديل فثناه طاقتَيْن ووضع الجاماتِ فيه وشَدّه ، ودعا بطين فختَمه ودَفعـه إلى غُلامه . ونَهضنا للأنصراف ، وقُدِّمت دوابُّنا . فلمـا ركب إبراهيمُ ألتفت إلىّ وقال : يا محمـد بن الحارث ، زعمتَ أنِّى لا أُحسن أنا وجاريتى شيئاً ، وقد رأيتَ ثمرة الإحسان ! فقلتُ فى نفسى : قد رأيتُ ، فخذها لا بارك الله لك فيها ! ولم أُجبه بشيء .

(١) المزة ، والقهوة ، والقرقف ، والشمول : كلها من أسماء الخمر . والراووق : الباطية للخمر . (٢) العشير : العشر ، وهو الجزء من عشرة .

ذكر خروج إبراهيم بن المهدى على المأمون

ثم ظفر المأمون به وعفوه عنه

تمهيد لابن واصل

ذكر أبو الفرج عَفْو المأمون عنه ولم يذكُر خُروجه ، فأردت أن أذكُر ذلك ملخصاً ؛ لأَبنى عليه ما ذكر أبو الفرج :

لما قُتل محمد الأمين بن الرّشيد ، وَصَفَت الدُّنيا للمأمون ، وأجمع الناس على البَيعة له ، وهو إذ ذاك بخُراسان بمَرْو ، أُستوزر الفضلَ بن سَهل ذا الرِّياستين . فغَلَب على المأمون غلبةً شديدة وحَجبه ، وصارت الأمور كُلها إليه . فأشار على المأمون أن يَجعل ولىَّ عهده والخليفةَ بعده الرِّضَى أبا الحَسن علىّ بن موسى ابن جَعفر بن محمد بن علىّ بن الحَسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم . وأن يُغيِّر السوادَ الذى هو لُبْس آبائه ، ويَلبس الخُضرة ويأمر النـاسَ بلِباسها . فأَجابه المأمونُ إلى ذلك . وأُستقدم المأمونُ علىَّ بن موسى . فقدم عليه . فأَمر الناسَ بالبَيعة له ، ولَقَّبه الرِّضى من آل محمد . وكَتب إلى الآفاق ببَيعته ، وأَمر بأن يُخطب له على المَنابر بعده . وأَمر الناسَ بلُبس الخُضرة ونَزْع السَّواد . ولما بَلغ أهلَ بغداد ومَن بها من بَنى العبَّاس كَرهوا نَقل الأمر عنهم إلى آل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وتَرْك الشِّعار الذى هو شعارُهم . فخَلعوا المأمون من الخلافة، وبايعوا بها عمَّه إبراهيم بن المهدى ، ولقَّبوه المُبارك ؛ ووقعت الحربُ بين إبراهيم ابن المهدىّ وبين الحَسن بن سَهل نائب المأمون بالعراق ، وأُضطربت الدُّنيا على المأمون . ولما بلغ المأمونَ ذلك نَدِم على ما فعل وعَلم أن الفَضل بن سهل هو الذى عليه الأُمور . فرَحل طالباً العِراق . فلما وصل إلى سَرْخس تواطأ جماعة على الفَضل بن سهل ، ففتكوا به وهو فى الحَمّام . ولما وصل إلى طُوس تُوفِّى علىّ

ابن موسى الرِّضى ولىّ عهده . فدَفنه عند أبيه الرَّشيد . وقد قِيل إن المأمون سَمَّه .
والله أعلم . ولمّا وصل المأمونُ إلى بغداد تفرّق عن إبراهيم بن المهدىّ أصحابُه ، واستتر
إبراهيم خوفاً على نفسه من المأمون . وكانت مُدة أيامه بالعراق سنةً وعشرة أشهر .
ودَخل المأمونُ بغداد ، وقد انتظمت له الأُمور ، ولم يبق له مُنازع ، وعليه وعلى
أصحابه الخُضرة . وأمر أهل بغداد بلُبسها ، فلَبِسوها . وأقام على ذلك أسبوعاً ،
ثم نزع الخُضرة ولبس السَّواد ، وأمر الناس بلُبسه ، وعادت الأُمور كما كانت عليه
أولاً . وكان دُخول المأمون بغدادَ سنةَ أربعٍ ومائتين .

هو والمأمون لما ظفر به

وفى سنة عشرة ظَفِر بعمِّه إبراهيم بن المهدى . ولما ظَفر به أحَبَّ أن يُوبِّخه
على رُءوس الناس . فجىء بإبراهيم بن المهدىّ يَحجُل فى قُيوده . فوقف على
طَرَف الإيوان فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته . فقال :
لا سَلَّم الله عليك ولا حَفِظك ولا رعاك ولا كَلأك يا إبراهيم ! فقال إبراهيم : على
رِسْلك يا أمير المؤمنين ، فلقد أصبحتَ ولىَّ ثأرى ، والقُدرةُ تُذهب الحَفيظةَ ،
ومن مَدَّ له الاغترارُ فى الأَمل هجمتْ به الأَناةُ على التَّلف ، وقد أصبح ذَنبى فوق
كُلِّ ذنب ، كما أنَّ عَفوك فوق كُل عفو . فإن تُعاقِبْ فبحقِّك ، وإن تغفر(١)
فبفضلك . فأطرق المأمونُ مليًّا ، ثم رفع رأسه فقال : إن هذين أشارا علىّ بقتلك .
فالتفتَ فإذا المُعتصم والعبَّاس بن المأمون . فقال : يا أمير المؤمنين ، أمّا حقيقة الرأى
فى معظَم تدبير الخِلافة والسياسة فقد أشارا عليك به ، وما غَشَّاك إذ كان منى
ما كان ، ولكنّ اللهَ عوّدك من العَفو عادةً جريتَ عليها دافعاً ما تخافُ بما ترجو ،
فكفاك الله يا أمير المؤمنين . فتبسّم المأمونُ وأقبل على ثُمامة بن أشرس ، ثم قال :
إنّ من الكلام لما يفُوق الدرَّ ويغلب السِّحر ، وإن كلام عمِّى منه ، أَطلقوا عن
عمِّى حديدَه ورُدُّوه إلىَّ مُكرَّماً . فلمّا رُد إليه قال : يا عمّ ، عُد إلى المُنادمة وارجع

(١) فى بعض أصول الأغانى : « وإن تعف » .

إلى الأُنس ، فلن ترى منّى أبداً إلّا ما تحب . فلما كان من الغد بعث إليه بدَرْج (١) فيه هذه الأبيات :

يا خيرَ من ذَمَلَتْ (٢) يمانيةٌ به بعد الرّسول لآيسٍ أو طامعِ
وأبرَّ مَن عبد الإله على الهُدى نفساً وأحكمه بحقٍ صادعِ
عُسْلُ الفوارع ما أُطعتَ فإن تَهِجْ (٣) فالموتُ فى جُرَعِ السِّمام الناقعِ
مُتيقِّظاً حذِراً وما تخشى العِدا نَبْهانَ مِن وَسنات ليلِ الهاجِعِ
والله يعلمُ ما أقول فإنها جَهْدُ الأَلِيَّة من حَنيفٍ راكعِ
قَسماً وما أُدلى إليك بحُجَّة إلّا التضرُّعَ من مُحبٍّ خاشعِ
ما إن عصيتُك والغُواة تَمُدّنى أسبابُها إلّا بِنيّة طائعِ
حتى إذا عَلقتْ حبائلُ شِقْوتى بِرَدًى إلى حُفَر المَهالك دافِعى
لم أدْرِ أنّ لِمثل ذَنْبى غافراً فأقمتُ أرقُب أىَّ حَتْفٍ صارعى
رَدَّ الحياةَ إلىّ بعد ذَهابِها وَرَعُ الإمام القاهر المُتواضعِ
أحياكَ مَن ولّاكَ أطولَ مدَّة ورَمى عدوَّك فى الوَتين (٤) بقاطعِ
إنّ الذى قَسَم الفضائلَ حازها فى صُلْب آدمَ للإمام السابعِ
كم مِن يدٍ لك لا تُحدِّثنى بها نَفسى إذا آلتْ إلىّ مَطامعى
أَدَّيتَها (٥) عفواً إلىّ هَنيئةً فشكرتُ مُصْطَنَعاً لأكرمِ صانِعِ
ورَحِمتَ أطفالاً كأفراخ القَطا وعَويلَ عانسةٍ كَقوس النازعِ
وعفوتَ عمّن لم يكن عن مثله عفوٌ ولم يَشفع إليك بشافعِ
إلا العُلوّ عن العقوبة بعد ما ظَفِرت يداك بمُستكين خاضعِ

---

(١) الدرج : بالفتح ويحرك : ما يكتب فيه . (٢) ذملت : سارت سيراً سريعاً ليناً .
(٣) أى حلو العطايا . (٤) الوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه .
(٥) فى بعض أصول الأغانى : « أسديتها »

فبكى المأمونُ ، ثم قال : علىَّ به . فأُتى به . فخَلع عليه وحَمله وأمر له بخمسة آلاف دينار . ودعا بالفرّاش فقال له : إذا رأيت عَمِّى مُقبلاً فاطرح له تُكَأَة . فكان يُنادمهُ ولا يُنكر عليه شيئاً .

وقيل : إن إبراهيم لما خاطب المأمون بما خاطبه به ، دَفعه إلى ابن أبى خالد الأَحول وقال : هو صديقُك ، فخُذه إليك . فقال : وما تُغنى صداقتى عنه وأميرُ المؤمنين ساخطٌ عليه ، أمَا إنى و إن كنتُ صديقاً له لا أمتنع من قول الحقّ فيه . قال : قُل ، فإنك غير مُتَّهم . فقال ، وهو يريد التسلّق إلى العفو عنه : إن قتلتَه فقد قتلتِ المُلوكُ قَبلك مَن هو أقلُّ جُرماً منه ، و إن عفوتَ عنه عفوتَ عمّن لم يُعفَ قبلك عن مثله . فنكت المأمونُ ساعةً بيده ، ثم قال[1] مُتمثّلاً :

قَومى همُ قتلُوا أُميمَ أخى ... فإذا رميتُ أَصابنى سَهمى
فلئن عفوتُ لأعفوَنْ جَللاً ... ولئن ثأرتُ[2] لأُوهنَنْ عَظمى

خُذه إليك يا أحمد مُكرَّماً . فانصرف به .

وذُكر أنّ المأمون تقدّم إلى محمد بن يَزْداد[3] ، لما أَطلق إبراهيم بن المهدىّ ، أن يَمنعه دارَىِ الخاصّة والعامّة ، ويُوكِّل به رجلاً من قِبَله يَثق به ليُعرِّفه أخبارَه . فكتب إليه الموكَّل به : إن إبراهيم لمّا بلغه مَنعُه من دارَىِ الخاصّة والعامّة تمثّل :

[4]يا سَرحةَ الماء قد سُدَّت مَواردُه ... أَمَا إليكِ طريقٌ غيرُ مَسْدُودِ
لحِائمٍ حامَ حتّى لا حِيامَ له ... مُحلَّأٍ عن طريق الماء[5] مَرْدود

(١) هذه رواية التجريد . وفى غيره : « فسكت المأمون ساعة ثم قال » .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « ولئن سطوت » .
(٣) فى بعض أصول الأغانى : « مزداد » تحريف .
(٤) الشعر لإسحاق الموصلى . (٥) فى بعض أصول الأغانى : «مطرود» مكان « مردود » .

فلما قرأها المأمونُ بكى ، وأمر بإحضاره من وقته مُكرَّماً ، وأنزله منزلته(١) .

فصار إليـه محمد فبشّره بذلك وأمره بالرُّكوب ، فركب . فلما دخل على المأمون قبّـل البساط ثم قال :

البِرُّ بى منك وَطا العُذْرَ عنـدك لى دون اُعتـذارِى فلم تعـدل ولم تَـلُمِ
وقام علمُك بى فاحتجَّ عنـدك لى مقـامَ شاهدٍ عَدْل غيرِ مُتَّهَمِ
رددتَ مالى ولم تَبْخـل(٢) علىّ به وقبـلَ ردِّك مالى قد حَقَنتَ دمِى
فبؤتُ منك وقد كافأتها بيـد هى الحيـاتان من موتٍ ومن عَدم
لئن كفرتُك ما أوليتَ من نِعَم إنِّى باللُّوم أولى منك بالكَرم
تَعفو بعَـدْلٍ وتسْطو إن سطوت به فلا عدمنـاك مِن عافٍ ومُنتقِم

فقال له المأمون : اُجلس يا عمّ آمناً مطمئنا ، فلن ترى منِّى أبداً ما تكره ، إلا أن تُحْدث حدَثا أو تتغيّر عن طاعة ؛ وأرجو ألّا يكون ذلك إن شاء الله .

هو وابن بسخنر ومخارق مع المأمون

وحكى محمدُ بن الحارث بن بُسْخُنَّر قال :

لمّا قدم المأمونُ من خُراسان لم يَظهر لمُغنٍّ بمدينة السلام غيرى ، فكنتُ أُنادمه سرًّا، ولم يَظهر للنُّدماء حتى ظَفِر بإبراهيم بن المهدى ، فلما ظفر به وعفا عنه ظَهر للنُّدماء . ثم جَمعنا ووجّـه إلى إبراهيم . فحضر فى ثياب بِذْلته(٣) . فلما رآه المأمونُ قال : أَلْقِ عمِّى رداء الكِبْر عن مَنْكِبيه . ثم أمر له بخِلَع فاخرة وقال : يا فَتح ، غَدِّ عمِّى . فتغدَّى إبراهيم بحيث يراه المأمون . ثم تحوّل إلينا . وكان مُخارق حاضراً ، فغنَّى مخارق بشعر عدىّ بن زيد :

هذا ورُبَّ مُسوَّفين(٤) صبحتُهم من خمر بابلَ لذةً للشاربِ

---

(١) فى بعض أصول الأغانى : « وإنزاله فى مرتبته » .

(٢) فى بعض أصول الأغانى : « ولم تمنن » . (٣) فى بعض أصول الأغانى : « مبتذلة » .

(٤) المسوف : الصابر .

بَـكروا علىّ بسُحرة فصَبحتُهم بإناء ذى كَرَم كَقعْب الحالِب
بزُجاجةٍ مِلْء اليدين كأَنها قِنْديل ُفِصْحٍ فى كَنيسة راهب

فقال إبراهيم بن المهدى : أسأت ! فأَعده . فأعاده . فقال : قاربتَ ولم تُصب . فقال له المأمون : إن كان أساء فأَحْسِن أنت . فغنّاه إبراهيمُ . ثم قال لمُخارق : أعده . فأعاده . فقال : أحسنت ! ثم قال للمأمون : كم بين الأمرين؟ قال : كثير. فقال لمخارق : إنما مثلُك مثلُ الثوب الفاخر إذا غَفل عنه أهلُه وقع عليه الغُبار فأحال لونَه ، فإذا نُفِض عاد إلى جوهره . قال: ثم غَنّى إبراهيم :

يا صاحِ ياذا الضامرِ العَنْسِ والرَّحْل ذى الأقتاد والحِلْس (١)

قال : وكانت لى جائزةٌ قد خَرجت ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، تأمر سيِّدى بإلقاء هذا الصوت علىّ مكانَ جائزتى ، فهو أحبُّ إلىّ منها . فقال : يا عم ، أَلْقِ هذا الصوتَ على مُحمد(٢) . فألقاه علىّ ، حتى إذا كدت أن آخُذه ، قال : اذهب ، فأنت أحذق الناس به . فقلت : إنه لم يَصِحّ لى بعـــد . قال : فاُغْدُ علىّ . فغدوتُ عليه ، فغنّاه متلوِّياً . فقلت : أيها الأمير ، لك فى الخلافة ما ليس لأحد ، أنت اُبنُ الخليفة وأخو الخليفة وعَمّ الخليفة ، تجود بالرغائب وتبخل علىّ بصوت ! فقال : ما أحمقك، إن المأمون لم يَسْتَبقنى محبةً لى ولا صلةً لرحِمى ولا ربّاً للمَعروف عندى ، ولـكنّه سَمع من هذا الجِرْم ما لم يَسمعه من غيره . قال : فأعلمتُ المأمون بمَقالته ، فقال : إنّا لا نُكدِّر على أبى إسحاق عَفْونا عنه ، فَدعْه .

فلما كانت أيامُ المعتصمُ نَشِط للصَّبوح يوماً . فقال : أحضروا عمِّى . فجاء فى

(١) الضامر : يوصف به الجمل والناقة . والعنس : الناقة الصلبة القوية . والحلس : ما يوضع تحت الرحل والقتب والسرج .

(٢) هذه رواية التجريد . ومحمد ، هو ابن بسخنر ، راوى الحديث . وفى غير التجريد : « مخارق » .

دُرّاعة بغير طَيْلسان . فأعلمتُ المُعتصم خبر الصوت سرًّا . فقال : يا عم ، غَنِّنى :

* يا صاحِ ياذا الضامر العَنْس *

فغنّاه . فقال : أَلْقه على محمد . فقال : قد فعلتُ ، وسَبق منّى قولٌ ألاّ أُعيده عليه . ثم كان يتجنّب أن يُغنِّيه حيث أحضرُه .

هو والأمين ولحن أخذه عن اسحاق

وحَكى عبدُ الله بن عيسى الماهانى ، قال :

دخلتُ يوماً على إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ فى حاجةٍ فرأيتُ عليه مِطْرف خزٍ أسود ما رأيتُ قطُّ أحسنَ منه ، فتحدّثنا إلى أن أخذْنا فى أمر المِطرف ، فقال : لقد كانت لكم أيامٌ حَسنة ودولةٌ عجيبة ، فكيف ترى هذا ؟ فقلت له : مارأيت مثلَه . فقال: إن قيمته مائة ألف درهم، وله حديث عجيب . فقلت له: ما أقوّمه إلا بمائة دينار . فقال لى إسحاق: أُسمع حديثه : شربتُ يوماً من الأيام فبتٌّ وأنا مُثْخَن ، فأُنتبهت لرسول محمد الأمين ، فدَخل علىّ فقال :يقول لك أمير المؤمنين: عَجِّل إلىّ ـ وكان بخيلاً على الطَّعام ، فكنت آكُل قبل أن أَذهب إليه ـ فقُمتُ فتسوّكتُ وأَصلحتُ أَمرى ، وأعجلنى الرسولُ عن الغِداء ، فدخلتُ عليه ، وإبراهيمُ ابن المهدىّ جالسٌ عن يمينه، وعليه هذا المِطرف وجُبّة خزّ دَكناء . فقال لى محمد : ياإسحاق ، تغدّيت؟ فقلت : نعم ، ياسيدى . فقال : إنك لنَهِم، أهذا وقتُ غَداء ! فقلتُ : أصبحتُ يا أمير المؤمنين و بى خُمار ، فكان ذلك ممّا حَدانى على الأكل . فقال لهم : كم شربنا ؟ فقالوا : ثلاثة أرطال. فقال : أُسقوه إياها . فقلت: إن رأيتَ أن تفرّقها علىّ ! فقال : يُسقى رِطْلين ورِطلاً . فدُفع إلىّ رطلان ، فجعلتُ أشربهما وأنا أتوهم أنّ نفسى تَسيل معهما . ثم دُفع إلىّ رِطلٌ آخر ، فشربتُه ، فكأن شيئاً انجلى عنّى . فقال :غنِّ .

كُليبٌ لعمرى كانأكثر ناصراً وأيسر جُرْماً منك ضُرِّج بالدَّمِ

فغنّيتُه . فقال : أحسنتَ ! وطَرِب وشرب . ثم قام فدَخل ، وكان يفعل ذلك كثيراً ، يدخُل إلى النِّساء ويَدعنا . فقمْتُ فى إثر قيامه ، فدعوتُ غلاماً لى فقلتُ : أذهب إلى بيتى وجِئْنى ببِزْمَا وَردَتَيْن(١) ولُفَّهما فى منديل ، وأذهب ركضاً وعَجّل . فمضى الغلام فجاءنى بهما . فلما وافى البابَ ونزل عن الدّابة انقطع البرذونُ فنَفق من شدّة ما رَكَضه ، وأدخل إلىّ البِزْما وَرْدَتين ، فأكلتُهما ، ورجعتْ إلىّ نفسى ، وعدتُ إلى مجلسى . فقال لى إبراهيم : إنّ لى إليك حاجةً أُحبّ أن تَقضيَها لى . فقلت : إنما أنا عبدُك وأبنُ عبدك ، فقُل ما شئتَ . فقال : تَرُد علىّ :

* كُليبٌ لَعمرى كانَ أكثَرَ ناصرا *

وهذا المِطْرف لك . فقلت : أنا لا آخُذ منك مِطْرفًا على هذا ، ولكنّى أصير إليك إلى منزلك وأُلقيه على الجوارى وأردّه عليك مراراً . فقال : أُحب أن تَردّه علىّ الساعةَ وأن تأخذ هذا المِطْرف ، فإنه من لُبْسك ومن حاله كذا وكذا . فرددتُ عليه الصوتَ مراراً حتى أَخذه . ثم سَمِعنا حركة محمد ، فقُمنا حتى جاء فجلس ، ثم قَعد وقَعدنا ، فشَرب وتحدّثنا . فغنّاه إبراهيم :

* كليبٌ لعمرى كان أكثر ناصرا *

فكأَنى والله لم أَسمعه قبلَ ذلك حسناً . وطَرب محمد طرباً عجيباً وقال : أحسنت والله يا عم ! يا غلام ، أَعطه عَشر بِدَر الساعة . فجاءوا بها . فقال : يا أمير المؤمنين، إن لى فيها شريكاً . قال : ومَن هو ؟ قال : إسحاق . قال : وكيف ؟ قال : إنما أخذتُه الساعةَ منه لمّا قُمتَ . فقلت له : ولِمَ ! أضاقت الأموالُ على أمير المؤمنين حتى يُشرِكك فيما تُعطاه ! فقال : أمّا أنا فأُشرِكك ، وأميرُ المؤمنين أعلم . فلما انصرفنا من المجلس أعطانى ثلاثينَ ألفَ درهم وأَعطانى هذا المِطرف . فهذا أخذتُه بمائة ألف درهم ، وهى قيمته .

(١) البزما ورد : طعام يصنع من اللحم المقلى بالزبد والبيض ، ويسمى : « لقمة القاضى » و« لقمة الخليفة » .

وهو والرشيد وجارية على بئر عروة

وحكى إبراهيم بن المهدىّ قال :

حججتُ مع الرشيد ، فلما صِرْنا بالمدينة خرجتُ أدور فى عَرَصاتها ، فانتهيتُ إلى بئر ، وقد عطشتُ ، وجاريةٌ تَستقى منها . فقلت : يا جارية ، امتَحى لى دلواً . فقالت : أنا والله عنك فى شُغل بضريبةٍ لموالىّ علىّ . فنقرتُ بسوطى على سَرْجى وغنَّيت :

رام قلبي السُّلوَّ عن أسماء ... وتعزَّى وما به من عَزَاءِ
سُخْنَةٌ فى الشتاء باردةُ الصَّيْـ ... ـف سِراجٌ فى اللَّيلة الظَّلْماء
كفِّنانى إن مُتُّ فى دِرْعِ أَرْوى ... وامتَحا لى من بئر عُروة مائى

والشعرُ للأحوص بن محمد الأنصارى . وتمام الأبيات :

إنّنى والذى تَحُجّ قريشٌ ... بيتَه سالكين نَقْبَ[1] كَدَاءِ
لَمُلِمٌّ بها وإن أُبْتُ منها ... صادراً كالذى وَردتُ بدائى
ولها مَرْبَعٌ ببُرْقه خاخٍ[2] ... ومَصيفٌ بالقَصْر قَصر قُبَاء[3]
قلبتْ لى ظَهْرَ المِجَنِّ فأمستْ ... قد أطاعتْ مقالةَ الأعداء

قال : فرفعت الجارية رأسها إلىّ وقالت : أتعرف بئر عُرْوة ؟ قلت : لا . قالت : هذه والله هى بئر عُروة . ثم سقتنى حتى رَويتُ ، وقالت : إن رأيتَ أن تُعيده ؟ ففعلتُ . فطَرِبتْ وقالت : والله لأحملنّ قِرْبَةً إلى رَحلك . فقلت : افعلى . ففعلتْ وجاءت معى تحملها . فلما رأتِ الجيش والخدَم فزِعتْ . فقلتُ : لا بأس عليك ! وكسوتُها ووهبتُ لها دنانيرَ وحبستُها عندى . ثم صِرْتُ إلى الرشيد ، فحدَّثته حديثَها . فأمر بابتياعها وعِتْقها . فما برحتْ حتى اشتُريت وأُعتقت . وأخذتُ لها صلةً منه وافترقنا .

(١) كداء : بأعلى مكة . (ياقوت) . (٢) برقة خاخ : قرب المدينة .
(٣) قباء : موضع قرب المدينة .

حديث رؤيته علياً فى النوم

وذُكر أن إبراهيم بن المهدىّ كان شديد الانحراف عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، فحدَّث المأمونَ يوماً أنه رأى فى المنام علياً رضى الله عنه، فقال له: مَن أنت؟ فأخبره أنه علىّ بن أبى طالب. قال: فمشَينا حتى جِئْنا إلى قنطرة فذهب يتقدّمنى لعبُورها. فأمسكتُه وقلت له: إنما أنت رَجلٌ تَدَّعى هذا الأمر بامرأة، ونحن أحقُّ به منك! فما رأيتُ له فى الجواب بلاغةً كما يُوصف عنه. فقال المأمون: وأىّ شىء قال لك؟ قال: ما زادنى على أن قال: سلاماً. فقال المأمون: قد والله أجابك أبلغَ الجواب. قال: وكيف؟ قال: عرّفك أنك جاهل لا تُجاب. قال الله عز وجل: (وإذا خاطَبهم الجاهلون قالوا سَلاماً). فخجل إبراهيمُ وقال: ليتنى لم أحدِّثك بهذا.

هو والرشيد فى شؤم اسمه

وحكى إبراهيم بن المَهدىّ قال:

كنت بين يدى الرّشيد جالساً على ظهر حَرّاقة، وهو يريد الموصلَ، وقد بلغنا إلى السَّواد، فأُنبه[1]، والمدّادون يَمُدّون السُّفن، والشَّطْرَنج بينى وبينه، والدَّستُ متوجِّه له، إذ أطرق هُنيهةً ثم قال لى: يابن أمّ، ماأحسنَ الأسماء عندك؟ قلت: محمد، اسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. قال: ثم أى شىء بعده؟ قلت: هارون، اسم أمير المؤمنين. قال: فأقبح[2] الأسماء ما هو؟ قلت: إبراهيم. فزجرنى ثم قال: ويحك! أتقول هذا! أليس هو اسم إبراهيم خليل الرّحمن؟ فقلت: بشُؤم هذا الاسم لقى من نَمْرودَ ما لقى، وطُرح فى النار. قال: فإبراهيم، ابنُ النبىّ صلى الله عليه وسلم؟ قلت: لا جرمَ! إنه لم يُعمَّر من أجله. قال: فإبراهيم الإمام. قلت: بشؤم اسمه قتله مروانُ فى حَرّان. وأزيدك يا أمير المؤمنين: إبراهيم بن الوليد، خُلع؛ وإبراهيم بن عبد الله بن حسن، قُتل؛ وعمه إبراهيم بن حسن، سقَط عليه

(١) هذه رواية التجريد. وفى غيره: «السودقانية» على أنها كلمة واحدة لموضع من المواضع.

(٢) فى بعض الأصول: «فأسمج».

السجن فمات؛ وما رأيت والله أحداً بهذا الاسم إلّا قُتل أو نُـكب، أو رأيته مضروباً أو مَقذوفا أو مَظلوما. فما أنقضى كلامى حتى سمعتُ ملّاحاً يَصيح بآخر : يإبراهيم، مُدَّ ويلك ! ثم أَعاد : ويلك يإبراهيم مُد ! ثم أعاد : يإبراهيم يا عاضّ بظر أُمـه مُدَّ ! فقلت له :أبقِى لك شيء بعد هذا ! ليس والله فى الدنيا اسم أشأم من إبراهيم والسلام. فضحك والله حتى أشفقتُ عليه .

تعريضه بالحسن ابن سهـل وهو يغنى فى حضرة المأمون

وذُكر أنه دخل الحسنُ بن سهل على المأمون وهو يشرب ، فقال له : بحياتى وبحقِّى عليك يا أبا محمـد ، إلّا شربتَ معى قَدَحاً ــ وصبَّ له من نَبيـذه قدحاً ــ فأَخذه بيده وقال له : مَن تُحِبّ أن يغنِّيك ؟ فأومأ إلى إبراهيم بن المهدىّ . فقال له المأمون : غَنِّ يا عمّ . فغنّاه :

* تَسمع للحَلْى وَسواساً إذا انصرفت *

يُعرِّضُ به لِما كان لحقه من السّوداء والاختلاط . فغضب المأمونُ حتى ظن إبراهيمُ أنه سيُوقع به . ثم قال له : أبيتَ إلا هُزؤاً يا أكفر خَلق الله لنِعَمه ! والله ما حَقَن دَمك غيرُه ، ولقد أردتُ قتلَك فقال لى : إن عَفوتَ عنـه فعلتَ فعلاً لم يَسبقك إليه أحد . فعفوتُ عنك لقوله ، أفحقُّه أن تُعرِّض به ولا تَدع كيـدك ودَغَلك ، أو أَنِفْتَ من إيمائه إليك بالغنـاء . فوثب إبراهيم قائماً وقال : يا أمير المؤمنين، لم أذهب حيثُ ظننتَ ، ولستُ بعائد . فأَعرض عنه .

هو وجارية لبعض أهله

وَذُكِرَ أن إبراهيم بن المهدى لما استتر خوفاً من المأمون كان عند بَعض أهله من النِّساء ، فوكَّلت بخدمته جاريةً جميلة وقالت لها : إن أرادك لأمرٍ فطاوعيـه وأَعلميه ذلك حتى يتّسع له . فـكانت تُوفِّيه حقه فى الخِدمة والإعظام ولا تُعلمـه بما قالت لها . فَجلّ مقدارُها فى نفسه إلى أن قَبّل يوماً يدَهـا . فقبّلت الأرضَ بين يديه ، فأنشد :

يا غزالاً لى إليه ... شافعٌ من مُقْلتَيْه
والذى أجلَلْتُ خدَّيه ... فقبَّلتُ يدَيْه
بأبى وجهك ما أكثر ... حُسّادى عليه
أنا ضيفٌ وجزاء الضَّيف ... إحسانٌ إليه

غنى المأمون فرق له

وذُكر أن إبراهيم بن المهدى غنَّى يوماً والمأمونُ مُصطبح ، وقد كان خافه و بلغه عنه تنكُّره :

ذَهبتُ من الدُّنيا وقد ذهبتْ منِّى ... هَوَى الدهرُ بى عنها وولَّى بها عنِّى

فرَقّ له المأمونُ لمّا سَمِعه وقال له : لا والله لا تذهب نفسُك على يد أمير المؤمنين ، فطِبْ نفساً ، فإن الله عزّ وجلّ قد أمّنك ، إلّا أن تُحْدِث حَدَثاً يشهد عليك فيه عَدْلٌ ، وأرجو ألاّ يكون منك حدَث إن شاء الله .

أجازه الأمين وقد غناه فى شعر أبى نواس

وذُكر أن إبراهيم بن المهدى غنّى محمداً الأمين ليلة فى شعر أبى نُواس ، وهو :

يا كَثِيرَ النَّوحِ فى الدِّمَن ... لا عليها بل على السَّكَنِ
سُنّة العُشّاق واحدةٌ ... فاذا أحببت (١) فاسْتَبِنِ
ظَنّ بى من قد كَلِفتُ به ... فهو يَجْفُونى على الظِّنَن
رَشأٌ لولا مَلاحتهُ ... خَلَتِ الدُّنيا من الفِتَن
كلّ يومٍ يسترقُّ له ... حُسنُه عبداً بلا ثَمن

وهذه الأبيات يمدح بها أبو نُواس محمداً ، وتمامها :

فاْسقنى راحاً على عذل ... كرهتْ مَسْموعه أُذنى
من كُميتِ اللون صافية ... خير ما سَلسلت فى بدنى
تضحك الدُّنيا إلى ملك ... قام بالآثار والسُّنن

(١) فى بعض أصول الأغانى : « فاستكن » .

أنت تبقى والفناء لنـــا … فإذا أفنيتنـــا فكُنِ

كيف تسخو النفس عنك وقد … قُمت بالغـــالى من الثمن

فأمر محمد لعمّه إبراهيم بثلثمائة ألف درهم . فقال له إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، قد أجزتنى إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم . فقـال محمد : وهل هى إلّا خَراج بعض الـكُوَر !

وقد حُـكى عن إبراهيم أنه قال :

لما أردتُ الانصراف قال : أَوقروا زَورقَ عَمِّى دنانيرَ ، فانصرفتُ بمال كثير .

وفاته وحديث ابنه مع المعتصم عنـه

وتوفى إبراهيم بن المهدى فى خلافة ابن أخيه المُعتصم بالله . فحكى إبراهيمُ بن هبة الله بن إبراهيم بن المهدى قال :

قلتُ للمعتصم : كانت لأبى أشياء لم يـكن لأحدٍ مثلها . فقـال : وما هى ؟ فقلت : شارية وزامرتُها مَعْمَعة . فقال : أما شارية فعندنا ، فمـا فعلت الزامرة ؟ فقلت : ماتت . قال : وماذا؟ قلت : وساقيته مكنونة ، ولم يُر أحسنُ وجهاً منها ، ولا ألينُ ولا أظرف . قال : فما فعلت ؟ قلت : ماتتْ ، قال : وماذا ؟ قلتُ : نخلةٌ كانت تحمل رُطَباً طولُ الرُّطبَة منها شبر . قال : فما فعلت ! قلت : جَمَّرتُها [1] بعد وفاته . قال : وماذا ؟ قلت : قَدَحه الضَّحْضاح . قال : وما فعل ؟ قلت : الساعةَ والله حَجمنى فيه أبو حَرْملة ، فسألتُه أن يهبه لى ففعل . فوجّهتُ به إلى منزلى فغُسل ونُظِّف وأُعيد إلى خزانتى . فرأيتُ أبى فيما يرى النائمُ فى ليلتى تلك ، وهو يقول لى :

أيُترع ضَحْضاحِى دماً بعدما غدتْ … علىّ به مكنونةٌ مُترَعاً خمرا

فإنْ كنتَ منّى أو تحب [2] مبرتى … فلا تُغفلنْ قبل الصَّباح له كسرا

قال : فانتبهتُ فزعاً ، وما فَرَق [3] الصبح حتى كسرتُه .

(١) أى قطعت جمرها . (٢) فى بعض أصول الأغانى : «مسرتى» . (٣) فرق : اتضح وتبين .

أخبار أبي النجم العجلى

نسبه

اسمه المُفضَّل — وقيل : الفَضل — بن قُدامة بن عُبيد الله بن عبـد الله بن الحارث بن عبـدة بن الحارث بن إياس[1] بن عَوف بن رَبيعة بن مالك بن رَبيعة ابن عِجْل بن لُجَيم بن صَعْب بن علىّ بن بكر بن وائل بن قاسـط بن هِنْب بن أفْصى بن دُعْمِيّ بن جَدِيلة بن أسد بن رَبيعة بن نِزار .

منزلته فى الرجز

وهو من رُجّاز الإسلام الفُحول المتقدِّمين[2] ، وفى الطبقة الأولى منهم .

رأى ابن العلاء فيه

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول :

هو أبلغ فى النَّعت من العجّاج .

رأى أبي عبيدة فيه

وقال أبو عُبيدة :

ما زالت الشُّعراء تَقْصر[3] بالرُّجّاز حتى قال أبو النجم :

* الحمدُ لله الوَهوب المُجْزِل *

وقال العجاج :

* قد جبر الدِّينَ الإلٰهُ فجبرْ *

وقال رؤبة :

* وقاتم الأَعماق خاوى المُخْتَرَقْ *

---

(١) فى غير التجريد : « الياس » .

(٢) فى بعض أصول الأغانى : « المقدمين » .

(٣) فى بعض أصول الأغانى : « تغلب » مكان « تقصر بالرجاز » .

فأُنتصفوا منهم .

إعظام رؤبة له

وذُكر أنّ فِتياناً من بنى عِجْل قالوا لأبى النَّجم : هــذا رُؤْبة بن العجّاج بالمِرْبَد(١) يَجلس يُسمع شعرَه ويُنشد الناسَ ، ويَجتمع إليه فتيانٌ من بنى تميم ، فما يَمنعك من ذلك ؟ فقال : أَوَ تُحبون هذا ؟ قالوا : نعم . قال : فـأْتونى بعُسٍّ(٢) من نَبِيذ . فأَتَوْه به . فشَرِبه ثم نَهَض ، وقال :

إذا اصطبحتُ أربعاً عَرفْتَنِى ثم تجشَّمتُ الذى جَشَّمتنى

فلما رآهُ رُؤْبة أعظمه وقام له عن مكانه ، وقال : هذا رَجّاز العرب . وسَألوه أن يُنشدهم . فأنشدهم أبو النجم :

* الحمدُ لله الوَهوب المُجزل *

وكان إذا أُنشد أَزبد ورَمَى بثيابه . وكان مِن أَحسن الناس إنشاداً . فلمّا فرغ منها قال : هذه أُمّ الرَّجز . ثم قال : يا أبا النَّجم ، قد قرَّبت مَرعاها إذ جَعلتَها بين رجل وأبنه . يُوهِم عليه رؤْبةُ أنه حيث قال :

تبقَّلتْ مِن أول التبقُّل بين رِمَاحَىْ مالكٍ ونَهشلِ

أنه يريد نَهشلَ بن مالك بن حَنظلة بن زيد مناة بن تميم . فقال له أبو النجم : هيهات ! إنما أُريد مالكَ بن ضُبيعة بن قَيس بن ثَعلبـة بن عُـكابة بن صَعب ابن علىّ بن بكر بن وائل . ونَهشل قبيلة من ربيعة(٣) .

(١) يريد : مربد البصرة : وهو من أشهر محالها ، كان سوقاً للإبل ، ثم كانت به مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء . (٢) العس : القدح الكبير .

(٣) وكان سبب ذكر هاتين القبيلتين – فيما ذكر أبو عمرو الشيبانى – أن دماء كانت بين بنى دارم وبنى نهشل ، فتحامى جميعهم الرعى بين فلج والصمان مخافة الشر ، حتى عفا كلؤه وطال . فجاءت تسير بنوعجل لعزها إلى ذلك الموضع فرعته ، ولم تخف من هذين الحيين . ففخر بهم أبوالنجم.

مناجزته العجاج وهرب العجاج منه

وذُكر أن العجّاج خَرج مُتحفلاً(١) ، عليه جُبة خَز وعمامة خَز ، على ناقة له قد أجاد رَحْلها ، حتى وقف بالمِرْبد والناس مجتمعون ، فأنشدهم قولَه :

* قد جَبر الدينَ الإلهُ فجَبَر *

فذَكر فيها ربيعةَ وهَجاهم . فجاء رجلٌ من بنى بكر بن وائل إلى أبى النجم ، وهو فى بيته ، فقال له : أنت جالسٌ وهذا العجّاج يَهجونا فى المِرْبد قد اجتمع عليه الناسُ ! فقال : صف لى حالَه . فوَصفه له . فقال : أبْغِنى جملاً طَحّاناً قد أُكثر عليه من الهِناء(٢) . فجاء بالجَمل إليه . فأخذ سراويلَ له ، فجَعل إحدى رجلَيْه فى السّراويل وأتزر بالأخرى ، وركب الجمل ودَفع خِطامَه إلى مَن يقوده . فانطلق حتى أتى المِرْبد . فقال : أخْلع خِطامه . فخَلعه . فأنشد :

* تذكَّر القلبُ وجهلاً ما ذَكَرْ *

فجعل الجملُ يدنو من الناقة يتشمَّمها ، ويتباعد عنه العجّاج لئلّا يُفسد ثيابَه ورَحْلَه بالقَطِران . حتى إذا بلغ إلى قوله :

* شيطانُه أنثى وشَيطانى ذَكَر *

تَعلّق الناسُ هذا البيتَ وهَرب العجّاج منه .

بز الشعراء عند عبد الملك وظفر بالجارية

وذُكر أنه كان عند عبد الملك بن مروان — أو ابنه سليمان — جماعةٌ من الشُّعراء ، وفيهم أبو النَّجم والفرزدقُ ، فقال : مَن صبَّحنى بقَصيدة يفتخر فيها وصدَق فى فَخره فله هذه الجاريةُ . قالوا : نعم . فقاموا على ذلك ، ثم قالوا : إن أبا النَّجم يَغلبنا بمُقطَّعاته ! ـ يعنون الرجز ـ فقال : فإنِّى لا أقول إلّا قصيداً . فقال مِن ليلته قصيدتَه التى يَفخر فيها ، وهى :

* عَلِق الفؤادُ حبائلَ(٣) الشَّعثاء *

(١) متحفلا : متزيناً . (٢) الهناء : القطران .

(٣) فى بعض أصول الأغانى : « علق الهوى بحبائل » .

ثم أصبح فدَخل عليه، ومعه الشُّعراء، فأنشده، حتى إذا بلغ إلى قوله :

منّا الذى رَبَع الجُيوشَ[(١)] لصُلبه عِشْرُون وهو يُعَدُّ فى الأحياءِ

فقال له : قِفْ، إن كنتَ صدقتَ فى هذا البيت فلا نُريد ما وراءه . فقال الفرزدق : أنا أعرف منه ستةَ عشر، ومن وَلَد وَلَده أربعة، كلُّهم قد رَبَع . فقال عبدُ الملك ــ أو سُليمان ــ : وَلَد وَلَده هم ولدُه، أدفع إليه الجاريةَ يا غُلام . فغلبهم يومئــذ .

حديث أخذه جارية من خالد القسرى

وذكر أنه بَعث الجُنَيدُ بن عبد الرحمن المُرِّى إلى خالد بن عبد الله القَسْرىّ بسَبْيٍ من الهنـد بِيضٍ . فجَعل يَهب لأهل البيت كما هو للرّجل من قُريش ومن وُجوه النـاس، حتى بقيتْ جاريةٌ منهنّ جميلةٌ كان يدّخرها وعليها ثيابُ أرْضِها فُوطتان . فقال لأبى النجم : هل عندك فيها شىء حاضر وتأخذها الساعة ؟ قال : نعم، أصلحك الله . فقال العُرْيان بن الهَيثم النَّخَعِىّ : كَذَب ! والله مايقدر على ذلك ــ وكان على شُرَط خالد بن عبد الله ــ فقال أبو النَّجم :

عَلِقتُ خُوداً من بنات[(٢)] الزُّطِّ ذاتَ جَهـازٍ مُضْغَطٍ[(٣)] مُلَطِّ
رابِى المَجَسِّ جَيِّـد المَحطِّ كأنما قُطَّ على مِقَـــطِّ
إذا بَدا منـــه الذى تُغَطِّى كأنّ تحتَ ثوبِها[(٤)] المُنْعَطِّ
شَـطًّا رميتَ فوقه[(٥)] بشَطِّ لم يَعْـلُ فى البطْنِ ولم يَنْحَطِّ
فيــه شِفاءٌ من أذى التَّمطِّى كهامةِ الشَّيخ اليمانى[(٦)] الثَّطِّ

وأومأ بيده إلى هامة العُريان بن الهيثم . فضَحك خالدٌ وقال للعُريان : هل تُراه أحتاج أن يُروِّى[(٧)] فيها ياعُريان ؟ فقال : لا والله، ولـكنّه مَلْعون، ابن مَلعون !

(١) ربع : أخذ ربع الأموال، وكان ذلك حظ الرئيس . والرواية فى غير التجريد : «لظهره» مكان «لصلبه» . (٢) الزط : جيل من أهل الهند .
(٣) الجهاز، هنا : فرج المرأة . وملط : مستور . (٤) المنعط : المنشق .
(٥) الشط : جانب السنام . (٦) الثط : الخفيف اللحية . (٧) يروى : يفكر .

غضب هشام عليه ثم رضي عنه

وذُكر انّ أبا النّجم ورد على هشام بن عبد الملك فى الشُّعراء . فقال هشام : صِفوا إبلاً فقَطِّروها(١) ، وأَوْردوها وأَصدروها ، حتى كأَنى أنظُر إليها . فأَنشدوه . وأَنشده أبو النجم قصيدته :

* الحمدُ لله الوَهوب المُجزل *

حتى بلغ إلى ذكر الشَّمس فقال :

* فهى على الأُفْق كعين ... *

وأراد أن يقول « الاحول » ، ثم ذَكر حَوْلَة هِشام ، فلم يُتم البيتَ وأُرتِج عليه . فقال هشام : أَجِز . فقال : « كعين الأَحول » وأَتمّ القصيدة . فأَمر هشام بوَجْء(٢) عُنقه و إخراجه من الرُّصافة . وقال لصاحب شرطته : يا ربيع ، إياك وأن أرى هذا ! فكلّم وجوهُ الناس صاحبَ شُرطته أن يُقِرّه ، ففعل . فكان يُصيب من فُضول أَطعمة الناس و يأوى إلى المساجد .

قال أبو النَّجم : ولم يكن بالرُّصافة أحدٌ يُضيفُ إلّا سُلَيْمَ بن كَيْسان الكَلْبي ، وعمرو بن بِسْطام التَّغلبي ، فكنت آتى سُليما فأَتغدّى عنده ، وآتى عَمْراً فأَتعشى عنده ، وآتى المسجدَ فأَبيت فيه . فأَهتمّ هشامٌ ليلةً وأمسى لَقِسَ النَّفس ، وأراد مُحدِّثاً يُحدِّثه ، فقال لخادم له : ابغنى مُحدِّثاً أعرابيّاً أهوجَ شاعراً يَروى الشعر . فخرج الخادمُ إلى المسجد ، فإذا هو بأبي النَّجم ، فضَربه برجله وقال : قُم أَجب أميرَ المُؤمنين . قال : إنى أعرابيٌّ غريب . قال : إياك أبغى ، هل تروى الشعر ؟ قال : نعم ، وأقوله . فأَقبل به حتى أَدخله القَصر ، وأَغلق البابَ . فأَيقن الشرّ . ثم مَضى به فأَدخله على هشام فى بَيت صغير ، بينه و بين نسائه سِتْرٌ رقيق ، والشَّمع بين يديه تزْهَر . فلما دَخل ، قال له هِشام : أبو النَّجم ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ،

(١) قطروها : أى اجعلوها قطاراً على نسق . (٢) الوجء : الضرب .

طريدك . قال : أجلس . فسأله وقال له : أين كنت تأوى ؟ وأين منزلك ؟ فأخبره الخبرَ . فقال : وكيف أجتمعا لك ؟ قال : كنت أتغدّى عند هذا ، وأتعشّى عند هذا . قال : فأين كنت تبيت ؟ قال : فى المسجد حيث وجدنى رسولك . قال : وما لَكَ من الولد والمال ؟ قال : أما المال فلا مال لى ، وأمّا الولد فثلاث بَنات ، و بُنَىّ يُقال له : شَيبان . فقال : هل زَوّجتَ من بناتك أحداً ؟ قال : نعم ، زوّجت أُثنتين و بقيتْ واحدة تَجْمِز [١] فى أبياتنا كأنها نَعامة . قال : وما وَصَّيت به الأُولى ؟ فقال : قلت :

أوصيتُ من بَرّةَ [٢] قلباً حُرّا ... بالكلب خيراً والحماةِ شَرّا
لا تَسأمى ضَرباً لها وجَرّا ... حتى تَرَىْ حُلو الحياة مُرّا
وإن كستْك ذهباً ودُرّا ... والحىَّ عُمِّيهم بشَرٍّ طُرّا

فضحك هشام ، وقال : فما قلت للأخرى ؟ فقال : قلت :

سُبِّى الحماة وأُبْهَتى [٣] عليها ... وإن دَنَتْ فأزدلفى إليها
وأوجعى بالفِهْر [٤] رُكبتَيْها ... ومِرْفَقيها وأضربى جَنْبَيها
وظَاهِرى النَّذْرَ [٥] لها عليها ... لا تُخبرى الدّهرَ به أبنتَيْها

فضحك هشام حتى بدت نَواجذُه وسَقط على قَفاه ، وقال : ويحك ! ما هذه وصية يعقوبَ ولدَه ؟ فقال : لا ، وما أنا كيعقوب يا أمير المؤمنين ! قال : فما قلتَ للثالثة ؟ قال : قلت :

أُوصيكِ يا بنتى فإنّى ذاهبُ ... أُوصيك أن تَحْمَدك القَرائبُ
والجارُ والضيفُ الكريمُ الساغب ... لا يُرْجَع المِسكينُ وهو خائب

(١) تجمز : تعدو وتسرع . (٢) برة ، هواسمها . (٣) ابهتى : افترى .
(٤) الفهر : الحجر . (٥) النذر ، بالضم : الاسم من « أنذر » ، أى توعد .

ولا تَنِي أظفارُكِ(١) السَّلاهبُ   منهنّ فى وجه الحَماة كاتِب

والزَّوجَ إن الزوج بئس الصاحب

فقال : وكيف قلت لها هذا ولم تتزوّج ! وأى شىء قلت فى تأخير تزويجها ؟ قال : قلت :

كأَنّ ظَلّامةَ أُخت شَيْبانْ   يَتيمـــةٌ ووالداها حَيّانْ

الرأسُ قَمْلٌ كُلّه وصِئبانْ   وليس فى الساقَيْن إلّا خَيْطان

تلك التى يفزع منها الشَّيطان

فضحك هشام حتى ضحك النساء لضَحِكه، وقال للخَصِىّ : كَم بقى من نفقتك ؟ قال : ثلثمائة دينار . قال : فأعطه إياها ليَجعلها فى رِجْل ظَلّامة مكان الخيطين .

وذُكر أن أبا النَّجم دخل على هشام بن عبد المَلك ، وقد أتت له سبعون سنة ، فقال له هشامٌ : ما رأيُك فى النساء ؟ فقال : إنّى لأنظرُ إليهنّ شَزْرا ، وينظُرن إلىّ خَزْراً(٢) . فوَهب له جاريةً ، وقال له : أُغْدُ علىّ فأَعْلمنى بما كان منك . فلمـا أَصبح غدا عليه . فقال له : ما صنعتُ شيئًا ولا قَدرتُ عليه ، وقد قلتُ فى ذلك أبياتاً ؛ ثم أنشده : رأيه لهشام فى النساء

نظرتْ فأَعجبها الذى فى دِرْعهـا   من حُسْنه ونَظرتُ فى سِرْباليـا

فرأتْ لها كَفلاً يَميـل بخَصْرها   وَعْثاً(٣) روادفُه وأَجْثَمَ رابيـا

ورأيتُ مُنْتشِرَ العِجان(٤) مُقلِّصاً   رِخْواً مفـــاصلُه وجِلْداً باليا

أُدْنِى له الرَّكَبَ(٥) الحَليقَ كأَنما   أُدْنى إليـــه عَقارباً وأَفاعيا

(١) السلاهب : الطويلة .
(٢) الشزر : النظر بجانب العين فى إعراض . والخزر : النظر بمؤخر العين .
(٣) الوعث : اللين . (٤) العجان : القضيب . (٥) الركب : الفرج .

ما بالُ رأسِك من ورائىَ طالعاً أظننتَ أنّ حِرَ الفَتــاة ورائيا
فاْذهبْ فإنّك ميّتٌ لا تُرتجَى أبَدَ الأبيــد ولا عَمِرْتَ لياليا
أنت الغَرُور إذا خُبِرْتَ وربما كان الغرورُ لمن رَجاه شــافيا
لـكنَّ أيرى لا يُرجَّى نفعُـــه حتى أعُود أخا فَتــاء ناشــيا

فضَحك هشام ، وأمر له بجائزة أخرى .

رجزه الذى فيه الغناء

والرّجز الذى فيــه الغناء ، واُفتتح به أبو الفرج أخبـار أبى النَّجم العجلى ، هو قولُه :

تَضحك عمّا لو سَقَتْ منــه شَفَا مِن أُقحُوانٍ بَلَّه [1] طَلُّ الضُّحَى
أغرَّ يجلو عن غِشَا العين العَشَا حُلْوٍ بعَيْنىْ كُلِّ كَهْــلٍ وفَتى
إنّ فؤادى لا تُسلِّيــه الرُّقَى لو كان عنها صاحياً لقــد صَحى

(١) فى بعض أصول الأغانى : « قطر الندى » مكان « طل الضحى » .